النظريات الحجاجية الكبرى: محاولة في التركيب

أ.د. أبو بكر العزاوي كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة السلطان مولاي سليمان - بني ملال
azzaouiboubker@yahoo.fr

الهدف من هذه المقالة هو تقديم لمحة عامة عن أربع نظريات حجاجية: نظرية الحجاج البلاغي المعروفة بالبلاغة الجديدة (شاييم بيرلمان)، نظرية الحجاج اللغوي (ديكرو)، نظرية الحجاج التداولي الجدلي (فان إيميرين)، نظرية الحجاج المنطقي (جان بليز غريز).

الكلمات المفتاحية: (حجاج، تركيب، نظريات، محاولة)

The Object of this article is to give a general overview of four argumentation theories, the most

famous rhetorical argument theory ; New rhetoric (P. Porelman), Linguistic argument theory (o.Ducrot) ;

Pangma –Dialectic argument theory (Van EEmeren) and Logic argument theory (g. B. GRİZE)

مقدمة:

لقد أصبح الحجاج (Argumentation) موضوع الساعة ومُوضة العصر بامتياز. وعصرنا عصر التواصل والحوار والتفاوض، وهو أيضًا عصر الإقناع والحِجاج

والجِدال والسّجال، وعصر التسامح والتعايش وقبول الاختلاف، وقبول الرّأي الآخر. ولن يتأتى لنا تدبير الاختلاف، والتعايش والتسامح إلا إذا لجأنا إلى الحوار والحِجاج والإقناع كلما كان هناك خلاف أو اختلاف أو كانت هناك أزمة من الأزمات.

ولذلك اعتنى الباحثون والعلماء والمفكرون بموضوع الحجاج والإقناع، ودرسوه في عدد كبير من العلوم والمجالات الفكرية والعلمية والمعرفية. فوجدناه في اللسانيات والأدب والنّقد وعلم الاجتماع وعلم النفس والقانون والسياسة والإعلام والإشهار والعلوم الشرعية والدينية وغيرها.

ولقد أدّى هذا إلى ظهور نظريات حجاجية عديدة: نظرية الحجاج البلاغي، أو البلاغة الجديدة مع شاييم بيرلمان (المدرسة البلجيكية)، نظرية الحجاج اللغوي مع أزفالد ديكرو (المدرسة الفرنسيّة)، نظرية الحجاج المنطقيّ مع جان بليز غريز (المدرسة السويسريّة)، نظرية الحجاج التداوليّ الجدليّ مع فان إيميرين وروب غروتندورست (المدرسة الهولنديّة)، ونظريّات أخرى.

وسنحاول في بحثنا هذا التعريف بالنظريات الأربع، وهي الأكثر والأشهر، والأكثر شيوعًا وذيوعًا وانتشارًا في العالم في عصرنا الرّاهن. وسنركّز بشكل أكثر على نظرية الحِجاج البلاغي ونظرية الحِجاج في اللغة لشيخنا وأستاذنا ديكرو.

نظرية الحِجاج البلاغي:

يرجع الفضل في انطلاق الدراسات الحِجاجيّة في العالم، وانبعاثها من جديد إلى العالِم والفيلسوف والمنطقيّ البلجيكيّ شاييم بيرلمان، فهو الذي أعطى الانطلاقة الأولى للاهتمام بالحجاج والمنطق غير الصوريّ (Logique non formelle) والاستدلال الطبيعيّ في الخمسينيات من القرن الماضي، وخاصة بعد نشره لأول كتاب له في هذا المجال، وهو كتاب: (البلاغة والفلسفة: نحو نظرية للحجاج في الفلسفة) سنة 1952. ثُمّ تطور الأمر بعد صدور كتابه الشهير الذي ألّفه بمعية الباحثة أولبريخت تيتيكا: (مُصنّف في الحجاج: البلاغة الجديدة) سنة 1958.

لقد كان شاييم بيرلمان يسعى إلى بناء منطق للقيم (Valeurs) (العزاوي، 2018م)،

وفي محاولتـه هذه صـادف البلاغة التقليديّة، أي: بلاغة أرسـطو على الخصوص، وهي بلاغـة إقناعيّـة تتعارض مع البلاغة الكلاسـيكيّة التي تطوّرت في القـرن 17 والقرون اللاحقة، والتي كانت تحصر البلاغة في المُحسّنات الجماليّة البديعيّة والصّور الأسلوبيّة. فقـام بثورة على هـذه البلاغة، وقام بإحياء البلاغة الأرسـطيّة التـي كانت بلاغة إمتاع وإقنـاع، وكانـت تعتنـي أيضًـا بالوظيفـة الإقناعيّـة الحجاجيّـة للخطـاب (العزاوي، 2018م). وبالمناسـبة فـإنّ البلاغة العربيّة القديمة ونقصد أعـمال عبد القاهر الجرجانيّ والسكاكيّ وآخرين كانت أيضًا بلاغة إقناعيّة حِجاجيّة.

ولهـذا وجدنـا بيرلمـان يقـدّم قـراءة جديـدة للبلاغـة الأرسـطيّة من جهـة، ويقوم بعمليـة إحياء وتطوير لها من جهة أخرى. ومن هنا تسـميته لنظريتـه بالبلاغة الجديدة (Nouvelle rhétorique)، وهـذه النظريـة لها أسـماء عديدة: البلاغـة الجديدة، البلاغة الحجاجيّة، الحجاج البلاغيّ.

والبلاغـة الجديـدة تتعـارض مـع كلّ بلاغة غير حِجاجيّـة، وتتعارض مـع التقليد الديـكارتي الـذي لا يؤمـن إلا بالعقلانيّـة البرهانيّـة، ويرفـض العقلانيـات الأخرى (العـزاوي، 2018م)، ومعلوم أنّ هنـاك أنماطًا من العقلانيّة، وأنماطًا من الاسـتدلال. والاسـتدلال البرهاني مُمثَّلًا في القياس المنطقي أو الاسـتنتاج الحتميّ ليس إلا نمطًا من بـين أنماط عديدة من الاسـتدلال. وهـو خاصّ باللغـات الاصطناعيّـة الصوريّة مثل المنطق والرياضيات.

أمّا الخطاب الطبيعي ومنه الخطاب الفلسـفيّ والقانونيّ والدينيّ والأدبيّ والسياسيّ والإشـهاريّ وغيرها فإنّنا نجد فيـه الحجاج بكلّ أنواعه (اللغـويّ، البلاغيّ، التداوليّ الجدليّ..) (انظر: العزاوي، 2007م)، ونجد فيه المنطق غير الصّوريّ، ونجد فيه أنماطًا أخرى من الاستدلال تندرج في خانة المنطق الطبيعيّ والعقلانيّة غير البرهانيّة.

والحجاج كما يعرفه شـاييم بيرلمان يتمثّل في مجموعة مـن التقنيات الخطابيّة الموجهة إلى إقنـاع الجمهـور الخاص أو الكليّ بـالآراء والأفكار والقضايـا المعروضة عليه، أي: إنّهـا تؤدي بالأذهان (LesEsprits) إلى التسـليم بالأطروحـة المعروضة، أي: إنّ الغاية

هـي الإذعـان والتسـليم والقبـول والاقتنـاع (انظـر :Perelman,Tyteca 1976م)، و (العزاوي،2018م).

ولقـد كتب بيرلمـان أبحاثًا عديدة يدعو فيها إلى التمييز بين المنطق الصوريّ والمنطق غـير الصـوريّ، والتمييز كذلك بـين الحجاج والبرهنـة. وهذه الفكـرة وجدناها عند اللسـانيّ أزفالد ديكرو والمنطقـيّ جان بليز غريز وآخرين (انظـر: العزاوي،2014)، و (العزاوي:2018م).

فالحجـاج هو الاسـتدلال الخـاص باللغـات الطبيعيّـة، والخطـاب الطبيعي، وهو احتـماليّ، ونسـبـــيّ، ومتـــدرّج، ويقبـل الإبـطال، ومرتبـط بالشـبيـه بالصّـدق (Le vraissemblable)، أمـا البرهنـة (La démonstration) فمرتبطـة باللغـات الصوريّـة الاصطناعيّـة. وهـي حتميـة ومُطلقة وتعتمـد على مفهـوم الصّـدق (Vérité) (انظر: العزاوي،2014)، و (انظر:العزاوي:2018م).

والحجاج حسـب تعريف بيرلمان يمكن أن يُقدّم بصورة اسـتنباطيّة (Déductive)، أي: إنّه يشغل عددًا لا بأس به من العمليات الاستنباطيّة، ولكن لا يعني هذا أنّه ينتمي إلى المنطق الصوريّ (انظر: العزاوي،2018).

لقد قسّـم بيرلمان كتابه الضّخم (مُصنّف في الحجاج) إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول يحمـل عنوان: «أُطُر الحجاج» (انظـر :Perelman,Tytec 1976م). وقد درس فيه فضلًا عن مسـألة التمييز بـين الحِجاج والبرهنة علاقةَ الخطيب بالجمهـور، وأنماطَ الجمهور، ومسألةَ الاتّفاق. وهو يرى أنّ الخطيب ينبغي أن يعرف نوع الجمهور الذي يتوجه إليه بالخِطـاب، فهناك الجمهـور الخاص، وهناك الجمهور الكليّ الـذي يتوجه إليه الخطاب الفلسفيّ مثلًا، وقد يكون الجمهور مُمَثّلًا بفرد واحد (حالة المونولوج).

ولقـد وجدنـا بيرلمان يربط هنا بين منطق الحجاج وفلسـفة القِيـم، ويرفض الفصل بين الجدل والبلاغة (وهو ما نجده عند أرسـطو). وهذا الربط بين الجدل والبلاغة هو الذي دفعه إلى تحقيق مشروعه الكبير المتمثل في البلاغة الحجاجيّة الجديدة.

وقد ركّز في نظريته على ما أسـماه أرسـطو بالحُجج الجدليّة، ولكنّه كان يُفضّل ربط

الحجـاج بالبلاغة، وليس ربط الحجاج بالجـدل؛ لأنّ مشروعه هو بناء بلاغة حجاجيّة أو بلاغة جديدة.

أمّا القسم الثاني فهو مُخصص لمنطلقات الحجاج. والمبدأ العام الذي دعا إليه بيرلمان وآخـرون ممن سـبقوه هـو المتمثّل في القولـة العربية القديمـة: (لكلّ مقـام مقال)، أي ضرورة المناسـبة والملاءمـة بين الخطاب الـذي ينتجه الخطيب والجمهـور الموجه إليه، وهـذه المنطلقات الحجاجيّة لهـا مقدمات هي الوقائع والحقائـق والافتراضات والقيم والتراتبيات والمواضع.

أمّا القسـم الثالث من الكتاب وهو القسـم الأهم فقد خصصـه لأنواع الحُجج، أو للتقنيات الحجاجية حسب تعبير بيرلمان.

والحُجـج عند بيرلمان تقسّـم على قسـمين: الحُجـج القائمة على الوصـل، والحُجج القائمـة عـلى الفصـل. ويشـمل النمـط الأول الحُجج التـي تربط بـين موضوعات أو عنـاصر لم تكن مربوطة في الأصل، وهي: الحُجج شـبه المنطقيّة، الحُجج المؤسسـة على بنية الواقع، الحُجج التي تبني الواقع وتؤسّسه.

فالنـوع الأول وهو الحُجج شـبه المنطقيّة لها قوة إقناعيّـة معيّنة، وهي قابلة للمقارنة مع الاسـتدلالات المنطقيّة. ومنها التناقض، والسـبر، والتقسـيم، والتعدية، والتبادل، والتضمين، والمقارنة، والتطابق، والتعريف وغير ذلك.

أمّا النوع الثاني فيشـمل حُججًـا من قبيل الحجة النفعيـة التداوليّة، وحجة الاتجاه، وحجة التجاوز، وحجة التبذير، وحجة السـلطة، وعلاقة الشخص بأفعاله، والروابط وغيرها.

أمّـا النوع الثالـث أي: الحجج التي تُؤسّـس الواقـع فنذكر منها المثال أو الشـاهد، وحجة القدوة، والتمثيل، والاستعارة.

القسم الثاني من الحجج أو التقنيات الحِجاجية نجد فيه الحُجج القائمة على الفصل بين المفاهيم. وقد يتطلب السياق هذا الفصلَ ليوظّف باعتباره حُجة ودليلًا على مسألةٍ

ما (انظر: Perelman,Tytec 1976م).

نظرية الحجاج اللغويّ:

وتُنسب هذه النظرية إلى اللسانيّ الفرنسيّ أزفالد ديكرو (O. Ducrot)، وهي نظرية لسانيّة تداوليّة انبثقت من داخل نظرية الأفعال اللغوية، وهي تعُدّ الحجاج فعلًا لغويًّا خاصًا، وتنطلق من مُسلَّمة مفادها: إنّنا نتكلّم عامّة بِقصد التأثير (انظر: العزاوي،2006م). وخصوصية هذه النظرية وجِدَّتُها تكمن في أنّها تدرس الحِجاج في اللغة، ولا تدرسه في مجالات أخرى، تعتبر خارجيّة، مثل البلاغة أو المنطق.

ويتمثّل الحجاج حسب ديكرو في الإمكانات التي تُقدّمها لنا اللغات الطبيعية للقيام بعمليات الحِجاج والإقناع والتأثير. فنحن نجده في كلّ الظواهر اللغويّة، وله مؤشّرات في بنية اللغة. الحِجاج هو منطق اللغة، ويتمثّل في القواعد الداخليّة للخطاب، التي تتحكم في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل مُتنامٍ وتدريجيّ. وبعبارة أخرى الحجاج يتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجيّة داخل الخطاب (انظر: العزاوي،2006م).

والخطاب له وظائف عديدة (تواصليّة، إخباريّة، نفسيّة، اجتماعيّة،...)، ولكن وظيفة الحِجاج هي الوظيفة الأولى والوظيفة الأساسيّة. والحِجاج له مؤشّرات لغوية عديدة، تتمثل في مجموعة من الأدوات والحروف والظروف، أو ما نسميه عادة بالروابط والعوامل الحِجاجيّة مثل (لكن، بل، حتى، إذن، لا سيما، لأنّ، ربّما، تقريبا،...).

والحُجج التي تدرسها هذه النظرية هي حُجج لغويّة، وليست حججًا بلاغيّة، أو تقنيات حِجاجيّة، كما هو الشأن عند بيرلمان، أي: التناقض، والتقسيم، والتعدية، والمقارنة، والمثال، وحجة السلطة، والتمثيل، وغير ذلك.

الحجة اللغوية هي معنى أو فكرة، أو هي عنصر دلالي يُقدّمه المتكلّم لصالح عنصر دلاليّ آخر هو النتيجة (انظر: العزاوي،2006م). فلو أخذنا جُملًا أو أقوالًا مثل: (الجو جميل لنخرج إلى النزهة)، و (زيدٌ مجتهد إذن سينجح)، و (السماء غائمة سينزل المطر). فالجزء الأول في كل جملة من الجُمل السابقة يتضمّن معنى هو الذي يُمثل الحجة اللغويّة المُقدّمَة لصالح النّتيجة الموجودة في الجزء الثاني من الجملة.

فـإذا كان الجـو جميـلًا فهو حُجة لصالـح التنـزّه، أو أنّ المتكلم يُقدّمـه إلى المُخاطب باعتباره دليلًا وحُجة لإقناعه بالخروج إلى النزهة.

وهنـاك مفاهيـم حِجاجيّة أخرى تقـوم عليها نظرية الحجاج في اللغـة مثل الروابط الحجاجيـة التـي تربط بين حجة ونتيجة (مثل «إذَن») أو بين علاقتين حِجاجيتين (مثل «بل» و«لكن»).

وهنـاك العامـل الحجاجي (كاد، ربـما، تقريبـا،..) الذي يقوم بحـصر الإمكانات الحجاجيّـة التي للقول، وهناك السـلم الحِجاجيّ وهو علاقة ترتيبية للحُجج بحسـب قوتهـا الحِجاجية، وأخـيرًا مفهوم الموضـع، أو المبادئ الحِجاجيّة، التي تضمن سـلامة الرّبـط بـين الحُجـة والنتيجة، وهـي تتصـف بالكليـة والشـموليّة والتدَرّجيّـة (انظر: العزاوي،2006م).

نظرية الحجاج المنطقيّ

لقـد كان مـشروع جـان بليز غريز الأسـاسيّ هـو بناء «منطـق طبيعـيّ» (Logique naturelle) (Borel, Grize, et Mieville1983,). وكان يرفـض منـذ أعمالـه الأولى اختـزال المنطـق في نمط واحد، هو المنطـق الصوريّ، أو المنطق الريـاضيّ، وكان يقاوم بشدّة هذا التهافت على الصّوْرَنَة، ويسعى إلى إظهار أنّ هناك أنماطًا من المنطق، وأنماطًا مـن العقلانيات. والمنطق الصوري الرياضي لا يُشـكّل إلا أحـد هذه الأنماط، ولذلك وجب توسـيع مجال المنطق والتعَقُّل والاسـتدلال. وقد جاء حديثه عن الحِجاج في هذا السياق.

الحجاج عند جان بليز غريز هو نشاط منطقيّ خطابيّ: إنّه نشاط خطابيّ؛ لأنّ الأمر يتعلق بتفكير كلاميّ، أي: إنّ الوسيلة المستعملة للتواصل هي اللغة الطبيعيّة البشريّة، وهو نشـاط منطقـيّ؛ لأنّه يتمثل في مجموعة من العمليـات الذهنيّة؛ ولأنّه ينتمي إلى ما يُعرف بالمنطق الطبيعيّ (انظر:Azzaoui ،2014م). إنّ الحجاج –بالنسـبة إلى غريز–هو مجموعة من الاسـتراتيجيات الخطابية لمتكلمٍ ما، يتوجه بخطابه إلى مسـتمع معيّن، من أجل تغيير الحُكم الذي لديه عن وضع مُحددٍ، أو قضيّة مُعيّنة، ويتأسـس الحجاج عنده

انطلاقًـا من مفهوم الخُطاطة (Schématisation)، التي هي أهم منه، فليس هناك إنتاج خطـابيّ (Discursif) لا يـؤدي إلى إنتاج خُطاطات وتمثيلات عـن العالم الآخر، ولكن ليست كلّ غاية خطابية حجاجية بالضرورة (انظر: Azzaoui،2014م) [1].

نظرية الحجاج التداوليّ الجدليّ:

الحجـاج التـداوليّ الجـدليّ هو الاسـم الـذي أطلقـه فرانس فـان إيميريـن وروب غروتندورسـت وجماعة أمستردام على نظريتهم الحجاجية. ويتعلق الأمر هنا بالمدرسة الهولنديّة الحجاجيّة [2].

ونظريتهم تندرج ضمن النظريات الحجاجية الأنكلوساكسـونية المعاصرة. وهي تسعى إلى التأليـف بـين الجوانب التداولية والجوانـب المعياريّة. وبعبارة أخرى، فـإنّ فان إيميرين وغروتندورسـت يحـاولان الجمع بين وصف تقنـيّ للحجاج من جهـة، وتقويمه من جهة أخـرى، بحيـث يبـدو لهما أنّ تحديـد حُجةٍ مـا يسـتلزم بالـضرورة أن نأخذ بعـين الاعتبار مقبوليتهـا، وبالمقابـل فإنّ تحديد صحة الحجة يعتمد بشـكل كبير على وصفهـا وصفًا كافيًا وملائـمًاو، (Breton,G, 2000م). والحجـاج عند هذين المؤلِّفين يُنظر إليه على أنّه سـيرورة حواريّة لحل الخلافات، أو لحل اختلافات الرأي في إطار نِقاشٍ نقديّ. إنّ الحجاج بالنسـبة إليهما له بُعدٌ تداوليّ؛ لأنّه يجري في سـياق تواصليّ معيّن؛ إذ يسـعى المُشـاركون في الحوار إلى حـلّ خلافاتهم، وله بعـدٌ جدليّ، (والجدل هنا بالمعنى الأرِسـطيّ للكلمـة)؛ لأنّه إجراءات تعتمد على التبادل والسّجال العقلانيّ (Breton,G,2000 م)، و (Amossy,2016م).

ثـمّ إنّ نظريتهم أو تصورهم للحجاج يعتمد على نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أُسسها مجموعة من فلاسفة اللغة العادية، وعلى رأسهم أوستن. ولهذا وجدنا أنّ هذين الباحثـين يعتـبران الحجاج فعلًا لغويًّا مُركّبًا، يمتد ليشـمل مجموعة من الأقوال. إنّه لا

(1) المبحث الخاص بالحجاج والمنطق الطبيعي عند غريز.

(2) انظر الأعمال التي انجزها هؤلاء الباحثون، ومنها كتاب (أساسيات النظرية الحجاجية، 1996)، و (المفاهيم الجوهرية للنظرية الحجاجية،2001م)، وكتب أخرى.

ينحصر في الأفعال اللغوية الأوّليّة (انظر: Amossy,2016م) [1] (الأمر – الاستفهام –...) التي درسها أوستن وسورل وآخرون. وقد اقترحا نموذجًا شاملًا لوصف مراحل النقاش النقديّ، وتحديد قواعد النقاش، ومعالجة المُغالطات بمختلف أنواعها، والعمليات والسيرورات المصاحبة لكلّ هذا، في إطار تداوليات جدليّة، ذات طابع وصفيّ وتقويمي في آن واحد.

الخاتمة:

لقد حاولنا أن نعرّف بنوع من التركيز بأبرز النظريات الحجاجية، وخاصة نظريات بيرلمان وديكرو وغريز وفان إيميرين. وكلّ نظرية من هذه النظريات لها توجّه معيّن، ولها تصور خاص للحجاج، فبعضها يندرج في البلاغة، وبعضها يندرج في اللسانيات التداوليّة، أو المنطق الطبيعيّ، أو التداوليات الجدليّة، وهناك نظريات أخرى لم نتمكن –لضيق الوقت– من التعريف بها مثل نموذج تولمين. وهذه النظريات تتفاعل فيما بينها وتتكامل. وقد أفرز هذا لنا أدبيات حجاجية شاملة وغنية. والله الموفّق إلى الصواب.

(1) انظر أعمال فان إيميرن وروب غروتندورست.

فهرس المراجع

– العزاوي أبو بكر: «نحو مقاربة حجاجية للاستعارة»، مجلة المناظرة، العدد: 4، 1991.

– العزاوي أبو بكر: «الحجاج والشعر»، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 7، فاس، 1992.

– العزاوي أبو بكر: «اللغة والحجاج»، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2006.

– العزاوي أبو بكر: الخطاب والحجاج، الأحمدية للنشر، 2007.

– العزاوي أبو بكر: حوار حول الحجاج، الأحمدية للنشر، 2010.

– العزاوي أبو بكر: اللغة والمنطق، طوب بريس، الرباط، 2014.

– العزاوي أبو بكر: الحجـــاج في اللـغـة والبـلاغـــة، مـجـلـة فصـــــول، القـاهـــــرة، العـدد: 101، 2018.

– العزاوي أبو بكر: الحجـاج والبــرهـــان، مجـلة روابـط، جامعة تبسة، الجزائر، العدد: 1، 2018.

– Anscombre J.c et Ducrot. O (1983) : L'argumentation dans la langue, Mardaga, Bruxelles.

– Azzaoui, B (2014) : Argumentation et énonciation, Top presse, Rabat.

– Amossy. Ruth (2016) : L'argumentation dans le discours, Armand colin, Paris.

– Breton. P et Gauthier. G (2000) : Histoire des théories de L'argumentation, La découverte, Paris.

– Ducrot. O (1980) : Les Echelles argumentatives, minuit, Paris.

– Emeren. F et al (1996): Fundamentals of argumentation Theory, London, Lawrence Erlbaum.

– Grize. J.B. (1982) : De la logique a l'argumentation, Droz, Genève–Paris.

– Grize. J.B. (1996) : Logique naturelle et communication, P.U.F. Paris.

– Perelman. Ch et Olbrechts–Tyteca (1976) : Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique. Bruxelles.

– Perelman. Ch (1977) : L'empire rhétorique, Vrin, Paris.